وشم في الذاكرة
(المعلم بين واقع الاحتراق وحلم الانبعاث)

عزيز غنيم

لم أشعر طوال حياتي بسعادة غامرة توازي سعادتي في ذلك اليوم الذي لمحت فيه اسمي على ذلك اللوح الخشبي الذي علقت عليه لوائح المقبولين بشكل نهائي في المدرسة العليا للأساتذة، التي قضيت فيها سنة في استكمال التأهيل في الفلسفة وعلوم التربية والديداكتيك (أسلوب التدريس وفن المعالجة التعليمية)، ليتم تعييني أستاذاً للتعليم الثانوي التأهيلي بمدينة تيزنيت التي شيدها السلطان المولى الحسن الأول سنة 1882م، لدرء أي توغل أوروبي قد يحيق بجنوب المغرب من جهة المحيط الأطلسي.

وقبل مجيئي إلى هنالك؛ أي إلى مدينة تيزنيت، لاستلم قرار تعييني، وأباشر عملي وأؤدي الرسالة النبيلة التي أحملها على عاتقي، لم أكن أعلم أن آمالي سيبتلعها ضجيج السبابات وتدافع الطاولات كلما دق الجرس. وقبل مجيئي إلى هنالك، لم أكن أعلم أن أحلامي ستنهار كما انهارت بديهيات أوقليدس، وقبل مجيئي إلى هنالك، لم أكن أعلم أن مسيرتي التي ابتدأتها كطائر نزق مغرد، سوف تنتهي كما انتهت حياة طائر الفينيق الذي تحدثت عنه الأساطير، والذي أدرك تفشي الظلم والعذاب في الأرض، فشرع يلوح بجناحيه إلى أن احترق مشاركاً البشر آلامهم وأحزانهم.

صفوف ممتلئة تنتهي عند لوح خشبي أكل عليه الدهر وشرب، شبابيك متوسطة زجاج بعضها منكسر، تلف جانبي القاعة، وجوه كثيرة تفتح أفواهها لالتهام أفكاري، لتلفظني في نهاية الحصة منهكاً مثل ملاكم خرج تواً من معركة خاسرة.

فقدت الكثير من الوزن في الشهور الأولى، حيث امتص العمل جسدي كما تمتص لفافة التبغ من طرف مدخن شره لم يذق طعم السيجارة منذ مدة طويلة. أحسست وكأنني في سباق للمسافات الطويلة وقد بدأ تواً.

لقد حاولت الاندماج وخلق نوع من التقارب مع هذا العالم الجديد الذي دفعني لاستكشاف عالمي قبل عوالمهم. أسئلة كثيرة استوقفتني وأفكار كثيرة اشتعلت برأسي؛ أنا الذي كنت أعتقد أن الإرادة والعزيمة هما وحدهما ما يدفعنا قدماً نحو تحقيق أهدافنا

جانب من مساق الطفولة المبكرة مع الخبير البريطاني لوك آبووت.

وغاياتنا، غير إنني بدأت أدرك في الأخير أن على الأيام أن تواصل السير في رتابتها المعهودة قبل أن ينزل مصاب يعكر صفوها، أو أن يحل فرح يهدم مللها، وأن مشيئة القدر هي ما يفعل ذلك.

في الواقع كان يسكنني ذلك الطائر الجميل «طائر الفينيق»، ويحلق بي فوق قوارب المعرفة، وفي دروب الحياة أملاً في تعيين طريق الحقيقة، وتحديد مكان تواجدها وتموقعها، «لانتشال المتعلمين من كهف البداهات المطلقة، والقناعات الجاهزة"، ذلك الكهف الذي لا يسمع فيه إلا صوت الحقيقة الواحدة، وصوت النغمة الواحدة، وصوت الكلام الواحد الذي يخفي وراءه عقلاً أعمى، يحرك الأشياء بطريقة تقود نحو الحمق والهذيان.

منذ بداية رحلتي المهنية وأنا أعمل جاهداً، وبكل ما أوتيت من قوة وعزيمة وشجاعة قل نظيرها، على ضخ أفكار فلسفية في عقول تلامذتي، مستقاة من معين فلسفة ابن رشد، ونيتشه، وديكارت، وإيمانويل كانط، علها تسعفهم في النهوض من سباتهم، وتخرجهم من شوائب العموميات التي تحمل أحكاماً مسبقة رسخها المجتمع التقليدي الذكوري في عقولهم.

وفي هذا الإطار، كنت أوصيهم دائماً بضرورة طرق السؤال باعتباره البوابة التي ستخرجهم من الجهل، وتدخلهم إلى المعرفة، لأن كل فرد منهم مطالب بأن يجد جوابه الخاص لأسئلة من قبيل: من أنا؟ وماذا أنا؟ وكيف صرت أنا ما أنا عليه الآن؟ أسئلة وجودية دخول معتركها يعني وضع أول خطوة في طريق الفلسفة، لأن الإنسان الواعي المفكر هو ذلك الكائن الذي يبحث باستمرار عن نفسه، يفحص ويتأمل أحوال وجوده في كل لحظة. وفي ذلك التأمل المبطن بالنقد، تتحصل القيمة الأساسية للحياة الإنسانية، وقد قال سقراط "إن الحياة التي لا توضع موضع تأمل لا تستحق أن تستمر".

كما كنت أدعوهم، كذلك، إلى التخلص من ربقة القيود التي تحدث عنها أفلاطون، والتي تجعلهم لا يرون إلا الظلال، ويعتقدون أنها عين الحقيقة. ومسعاي ومطمحي في كل هذا، هو هدم تلك الحقائق المستقيمة والمربعة الشكل، "والكشف عن ذلك المسكوت عنه الذي يقض المضاجع"، والإنصات إلى ذلك الصوت الذي تمت تبكيته -كما قال فوكو- وإرغامه على الصمت.

طلاب المدرسة الانجيلية الأسقفية العربية في لقاء مع الكاتب أنس أبو رحمة لنقاش رواية «نزل الذرة الصفراء»، ضمن نشاط كاتب في مدرسة الذي تنظمه مكتبة مركز القطان للبحث والتطوير التربوي.

ما زلت أتذكر أولى الخطوات التي خطتها التلميذة (س، ك) نحوي ذلك الصباح عندما دق جرس نهاية الحصة، ما زلت أتذكر عينيها اللتين كانتا تخفيان الكثير من الأسرار، ويديها اللتين ترتعشان تحملان ورقة مطوية بعناية أعطتني إياها قبل أن تنسحب من قاعة الدرس بسرعة، وفي الحقيقة لم يمر ذلك اليوم كما رسمته في مخيلتي الواسعة، ولا كما خططت له في جذاذاتي (إعدادي القبلي للحصة).

فبعدما قرأت الورقة أصابني الدوار، وشعرت بحالة غثيان ممزوجة بقيء من ذلك النوع الذي يتبع وجبة خمر رديء في إحدى الحانات الرخيصة. لقد أسرت لي في تلك الورقة عن آهاتها وأحزانها، وعن طفولتها المغتصبة من طرف ذئب بشري يعد من أقرب المقربين إليها -أخوها الذي يكبرها سناً بقليل- كان ينهش لحمها كلما أرخى الليل أوتاره، إذ كان يغلق فمها بيد وينزع ثيابها باليد الأخرى حتى يقضي وطره منها، حيث كانت لا تسمع سوى ضجيج رعبه أما صخبها وصرخاتها، فقد امتصهما وابتلعهما صمت الليل، سامحاً بامتزاج العنف بالألم، والنهم بالضعف، لتكون النتيجة مع مرور الأيام ديناً شعاره الحفاظ على الأسرة من التشتت والتفكك. أما في النهار، فقد كان ذلك الوحش يتصرف وكأن شيئاً لم يقع في الليل، لكونه مزيجاً من نخاع وغضاريف جامدة، ودم مخثر، وبراز تنبعث منه رائحة نتنة؛ رائحة أولئك الأموات الذين يعيشون بين ظهرانينا وما أكثرهم.

جالستها في اليوم الموالي في مركز الإنصات والاستماع التابع للثانوية، وذلك بتنسيق مع الإدارة التربوية، فباحت لي بحرقة، وعيناها مبللتان بالدموع، عن تضاعيف وتقاسيم ذلك الفعل الشنيع الذي اقترف في حقها، وعن الكوابيس التي تقض مضجعها كل ليلة، وعن جراحها المثخنة التي لم تندمل ولن تندمل أبداً حتى توارى التراب.

وبعد أن شكرتها على الثقة التي وضعتها في، دعمتها نفسياً ونصحتها بأن تنسى وتتطلع نحو غد أفضل، وأن تنخرط في أحد الأندية التربوية الموجودة في الثانوية (نادي الشعر أو المسرح أو حقوق الإنسان) لكي تفجر ما بداخلها، وتنفس عن نفسها، حتى يتسنى لها الاستمرار في الحياة، لأن الإنسان لا يستطيع أن يسبح في مياه النهر نفسه مرتين كما قال الفيلسوف اليوناني هيراقليطس.

بقيت على تواصل دائم معها، وكنت أمدها بما تيسر من الروايات والكتب الفلسفية والدواوين الشعرية إلى أن اجتازت بنجاح وتفوق امتحانات السنة الختامية من التعليم الثانوي التأهيلي (الباكالوريا)، وبعد ذلك انقطعت أخبارها عني.

هذا الحدث وشم ذاكرتي وترك جروحاً وندوباً غائرة في نفسي، وما زال يجتاح خيالي إلى يومنا هذا، لقد زعزع رجولتي وأستاذيتي وحقيقتي أنا الذي اعتقدت أنني اكتشفت سر الأسرار ولغز الألغاز في الفلسفة، لقد أدخلني في غيبوبة فكرية، وفي صمت قاتل لم أقوَ معه على الفعل إلى أن انتشلت نفسي من براثنه كطائر فينيق بعث من رماده، لكي يصرخ في وجه كل جثة تحمل في رأسها قبراً، وفي قلبها مقبرة، كفى دماً مهدوراً! كفى دماً مغدوراً!

وأنا أكتب هذه السطور، لست أدري إلى أي حد يمكن اعتبارها جديرة بالقراءة أو بالمناقشة، لكن أنا مصر على ضرورة تعرية الجذور التي تؤسس شجرة الأخطاء القاتلة التي يرتكبها الآخرون في حق المقربين، جذور شجرة الخطيئة التي أكل منها آدم في يوم من الأيام الغابرة، فعاقبه الإله بإخراجه من الجنة التي كان فيها سعيداً مرتاح البال.

لا أريد أن يفهم القارئ من هذا الكلام أنني تجاوزت كل أخطائي، لكن هذا الكلام اعتراف بكل ما أحس به، وبكل ما يؤلمني أنا كمدرس للفلسفة. كما أنني أردت فقط التكلم كي لا يغيب سؤالي حول ذاتي وحول علاقتي بتلاميذي في مجاهل النسيان التام، وفي متاهات السقوط الذي لا مخرج منه.

الثانوية التأهيلية الحسن الثاني
تيزنيت/ المغرب

طلاب المدرسة الانجيلية الأسقفية العربية في لقاء مع الكاتب أنس أبو رحمة لنقاش رواية «نزل الذرة الصفراء».